الرخاء والاستهلاك الى الطريق المسدود معناه القضاء على مخططاتها واهدافها واطماعها . وحكومات البرجوازية لا تحرص على التمسك بالحكم الا للمحافظة على مصالح الطبقات التي تمثلها . وسلاحها دائما هو الوعود الرنانة وملء المعد . وعندما ووجهت بامتحان عسير ، ظهرت وعودها كفقاعات الهواء وراحت مبادؤها ومثلها تهوي واحدا بعد الاخر . كانت تتبجح دائما بتفوقها العلمي على اجزاء العالم الاخرى على اساس انه الضمانة ضد التقهقر الاقتصادي والاجتماعي . عند الامتحان ثبت ان هذه الضمانة لا وجود لها . كانت دائما تنكر على العرب حقهم في الدفاع عن قضاياهم العادلة ، بحجة ان العرب ظالمون يغطون تأخرهم بالاعتداء على دولة ديموقراطية صغيرة مسالمة . وأمام التجربة الحقيقية ثبت ان اهتمامهم باسرائيل ينتهي عند طلوع العرب على العالم طلعة الجنود المظفرين القادرين على فرض ارادتهم على من يسيء اليهم . فجأة صار وصف العرب بالبرابرة أمر محرم على الانواء . صار حق اسرائيل بالبقاء من شأن اسرائيل وحكومة اميركا فقط . صارت شعارات ادانة اليهود التي ظهرت في اميركا على السيارات من شأن اصحابها فقط .

ملامح التغيير المقبل على عقليات الناس تشير الى ان الناس سيقبلون قريبا على مرحلة فكرية جديدة تكون محاسبة النفس وانظمة الحكام من اعمدتها الراسخة. والمراقب المقيم في الغرب اصبح يرى البدايات منذ الان . ولا ريب على هذا الاساس ، ان الانسان الغربي سيدرك خلال وقت ليس ببعيد كيف تحقق رفاهه المادي على حساب الملايين من اهل الارض الذين لا يعثرون حتى على رغيف الخبز . وسيدرك انه كان مبذرا في كل شيء ، لانه كان يملك الكثير من كل شيء . قال مسمير رئيس وزراء فرنسا في ٢٠ كانون الثاني من عام ١٩٧٣ « ان هدف القانون الذي يخفض سرعة السواقة على الطرق هو زرع روح التوفير عند الناس » . وأغلب الظن ان الانسان المبذر اذا ما فرضت عليه أوضاع جديدة تحتم عليه التوفير في استهلاكه للطعام والوقود والمشتريات الاخرى ، سيتعرض لتغيير جذري في وعيه الانساني يحصنه ضد استغلال المستغلين ويصب سلوكه الاجتماعي في قوالب جديدة . قال الكاتب الاميركي انتوني لويس في الهرالد تريبون بتاريخ ٤ كانون الاول من عام ١٩٧٣ « هناك بديل واحد لوهم الطاقة اللامتناهية والرخاء اللامتناهي في اميركا . ذلك هو الاخذ بأخلاق التوفير . ليس التوفير القائم على تخفيض درجة الحرارة في البيوت ، وانما التوفير عن طريق التمييز بين الخيارات الاجتماعية الصائبة والخيارات الاقل صوابا ، الامر الذي يحتم البحث عن قيم حياتية وخلقية جديدة . على سبيل المثال، سيكون جنونا استمرار الادارة الاميركية في تنفيذ مشروع بناء اوتوستراد جديد عبر البلاد . ان تغيير عادات الاميركيين في مجال استهلاك الطاقة أمر ليس سهلا ، بل عملية معقدة جدا . لكن الصعوبة تزول اذا بدأنا بتغيير القيادة في البلاد . بكلمات اخرى يجب ان نحصل على قادة لا يدغدغون خواصرنا بالوعود الفارغة حول الرخاء والكفاية ، وانما يحثوننا على اتباع حياة افضل ، حياة مشاركة العالم الثالث كل ما نملك . هذا هو الطريق الوحيد للقضاء على الكابوس الداروينى المحلق فوق رؤوسنا » . وقال الكاتب والمفكر السويسري دنيس دي روجيمونت « العرب أثبتوا ان اوروبا لا مكان لها على مستوى الحكومات . ففي كل مؤتمر قمة اوروبي جديد ، نكشف عن المزيد من خلافاتنا . العرب جعلونا نعمد الى الهروب . من ناحية اخرى فان شبح كارثة اقتصادية يمكن ان يكون الهزة القوية التي تحتاجها اوروبا . على اساس هذا لا بد من توجيه الشكر لشيوخ البترول وأمرائه . لقد كنا دائما اشبه بالعجزة الذين لا يغيرون معيشتهم الا اذا وقعت كارثة . الان صار بامكاننا تغيير نمط معيشتنا بشد احزمتنا وبالتركيز على البحث العلمي وبالسعي لبناء وحدة اوروبية غير مزيفة » .

وبعد ، هل يواكب العرب هذه التطورات والتحولات المذهلة والعميقة ، باسراع الخطو على درب انهاء الوجود الامبريالي الصهيوني في الشرق الاوسط ، ودعم الثورة الفلسطينية دون تردد او تحفظ ، واداء دورهم الحضاري في عالم اليوم ؟ فهم يملكون كل شيء .. المال والسلاح والمنطق والتأثير . اذا وعوا قيمة ما يملكون ، واذا سارعوا الخطى في مجالات رفع المجتمعات العربية الى مستوى العصر ، واذا انقذوا بقائض أموالهم افريقيا وليس الحكومات والدول التي تمثل عالم الصناعة المسيطر على مصائر الشعوب ، اذا فعلوا كل ذلك اخذهم الاخرون مأخذ الجد في مقبل الايام أيضا .

عقيل هاشم